الخوف والشكوى من الظلم والقيد والسجن في شعر الفرزدق

أ.م.د عبد المطلب محمود سلمان

جامعة المثنى/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

المقدمـــــــة :

شُهِر الشاعر الأموي الفرزدق، همّام بن غالب بن صعصعة (20ــ112هـ /641ــ 730م) من دارم ثم من تميم، بنقائضه مع مجايله الشاعر جرير بن عطيّة بن حذيفة الخطَفي، التي راجت وشاعت طوال سنين، وانتقلت من البصرة إلى مدن الإسلام الأخرى، ثم عبر العصور الأدبية من عصر / أو مرحلة حكم بني أميّة من العصر الأدبي الإسلامي إلى عصرنا الحاضر، حتى كادت النقائضُ تكون وحدها بما تضمّنت عليه من فخر بقومه الأدنين وقبيلته الأكبر، الغرض الأبرز في مجموع شعره الذي نقله إلينا مؤرّخو الأدب القدامى، والذي تضمّن العشرات ــ إن لم نقُل المئات ــ من القصائد المطوّلة والقصيرة ومقطّعات المديح والغزل والرثاء، التي لا تُذكر إلا في هذه الدراسة أو تلك، وفي هذا العرض التاريخ ــ أدبي أو ذاك، لا بل إن مطوّلاته في الخوف من ظلم الولاة والحكّام والشكوى الشخصية أو العامة من جورهم، ووصف القيود (الكبول الحديد منها والقيود الأخلاقيّة التي فرضها على نفسه) والسجن وعذابه، ومعها العديد من القصائد القصيرة والمقطعات التي عبّر الشاعر عن هذه المضامين فيها، كادت تختفي ــ إلا ما ندَر ــ عن مواضع الشهرة والذيوع والانتشار، في الكم الكثير من الدراسات الذي تناول شعر هذا الشاعر، طوال عشرات العقود من السنين.

وبالرجوع إلى ديوان الشاعر الذي وصل إلينا، ضامّاً (606) قصيدة مطوّلة وقصيرة ومقطّعة، بمجلدين عن دار صادر في بيروت سنة 1966م، أمكن لنا الوقوف على **(32)** منها، تراوحت مضامينها بين :

- الخوف ــ حدَّ الهروب ــ من بطش الولاة والحكّام.

- الشكوى العامّة (نيابة عن الآخرين) من جَور الولاة وظلمهم ومن الجوع والفقر.
- الشكوى من القيد الأخلاقي والديني.
- الشكوى من قيود (كبول) السجن ووصف ما عانى فيه من عذاب.

وهي مضامين لم تأخذ ــ في يقيننا ــ حقَّها الكافي من البحث والدراسة من جانب، ولم نقف إلا على إشارة سريعة في مقدمّة الديوان ــ آنف الذكر ــ المبتسرة، إلى الأسباب السياسية والفكرية والاجتماعية الحقيقية، التي تقف من ورائها، من الجانب الآخر.

إن عملية الوقوف بدقة وعناية على هذه المضامين، وجلاء الحقيقي من أسبابها، بحسب القناعة التي قادنا إليها بحثنا هذا، فضلا على جلاء حقيقة اتهامه بالفجور وقلة ورعه وخوفه من الله تعالى، ومدى انفتاح نصوص الشاعر المختارة على الواقع ومساراته الحقيقية، تطلّبت منّا الإفادة من المنهج العلاماتي (السيميائي)، باستشفاف المداليل أو المضامين المُغيَّبة لجلاء الأسباب الكامنة وراء ظهور هذه المضامين في أشعار الفرزدق، الشاعر المحسوب على الدولة الأمويّة من حيث الولاء من جهة، ووراء تجاهل مؤرّخي تلك المرحلة الأدبية لهذه المضامين الفكرية (السياسية) والنفسية والاجتماعية، وإلصاق التهم غير الدقيقة بهذا الشاعر المتميز، من جهة ثانية.

وبروح بحث بعيدة عن أحكام النقّاد القدامى، غير المنقّاة من عوامل كثيرة، زمنية ومكانية وفكرية واجتماعية، حاولنا إعادة قراءة ما تضمنته أشعار هذا الشاعر، يحدونا أمل التوفيق في التوصّل إلى نتائج مغايرة من شأنها إنصاف الشاعر وإعادة تقويم مواقفه.. ومن الله التوفيق والسداد.

المبحـــــث الأول

الخوف ــ حدّ الهروب ــ من بطش الولاة والحكام

في سبع مقطّعات وسبع قصائد قصيرة ومن مطوّلاته، يبلغ مجموع أبياتها (190) بيتاً، أظهر الفرزدق من مشاعر الخوف من بطش الولاة والحكّام الأمويين ما يفوق التصوّر، فهو في المقطعة الأولى يُبدي خوفه ويؤكد فراره من والي البصرة (زياد بن أبيه) واضطراره إلى اللجوء

إلى المدينة، مسوّغا خوفه وشدّة هلعه بأن وعيد هذا الوالي إنما تفرُّ منه حتى الأسود، بالقول : (الوافر)

ألا مَن مُبلـــغٌ عني زيـــــادا بأني قـــد لجـأتُ إلـى سعيـــدِ

وإني قد فـــرَرتُ إليـه منكم إلى ذي المجـــــــدِ والحسَبِ التليدِ

فِراراً من شتيمِ الوجهِ وردٍ يُفـزُّ الأُسْـدَ خوفـــاً بالوعيـــــــدِ (1)

وهو في المقطعة الثانية يؤكد ذلك الخوف من الوالي نفسه، وقد جاء في مقدمة المقطعة : "زعموا أن أسداً لقيه، فاخترط سيفه ومشى إليه، فخلّى له الأسد الطريق، وكان هارباً من زياد من البصرة إلى الكوفة"، فيقول : (الكامل)

ما كنـــتُ أحسَبُنـــي جبـــانـــاً قبـــل أن لاقيـــتُ ليلـــةَ جانـــبِ الأنهـــارِ

ليثـاً كـــأنّ علـــى يـــديـــهِ رِحالـــةً جسِـــدَ البراثـــنِ مُؤجَـــدَ الأظفـــارِ

لمّـــا سمِعـــــتُ لـــه زمـــازمَ أقبلـــتْ نفسي إلـــيَّ وقلـــــتُ : أين فـــراري؟

فضربتُ جِروتها وقلتُ لها : اصبري وشـــدَدتُ في ضيـــقِ المقامِ إزاري

فلأنـــتَ أهـــــونُ من زيـــادٍ جانبـاً فاذهـــبْ إليـكَ مُخـــرَّمَ السُّفّـــارِ (2)

فهو ــ الليث ــ ضخم كثيف شعر الكتفين وقد يبس (جسِد) عليه الدم بادي المخالب، وما كان أمامه ــ الشاعر ــ غير أن يُطمئن نفسه الهَلوع في موقفه ذاك، بأن هذا الأسد أهون عليه من بطش الوالي به.

ويجدد الشاعر خوفه من بطش هذا الوالي، في مقطعة ثالثة جاء في مقدمتها أنه "قال لزياد بن أبيه" : (الطويل)

ألا طرقـــتْ ظميـــاءُ والركبُ هُجَّـــدُ دوَيـــن الشجـــيِّ عن يمينِ الخَرانـــقِ

طريداً ســـرى حتى أنـــاخ وما بـدَتْ من الصبحِ أعنـــاقُ النجومِ الخوافـــقِ

شريجـــانِ بِكـــرٍ لم تُدَيَّـــثْ ومُرضِعٌ تركنـــا لهـا لـبّـــاً كلـــبِّ المعالـقِ

إذا ذكـــرتْ نفسي زيـــاداً تكمَّشـــتْ من الخوفِ أحشائي وشابَتْ مَفارقي! (3)

أما في المقطعة الرابعة فيُبدي الشاعر خوفه من الوالي الآخر (الحجّاج)، بالقول : (الطويل)

إذا ما بـــدا الحجّـــاجُ للناسِ أطرقـــوا وأسكـــتَ منهـم كلَّ مَـن كان ينطِـــقُ

فما هـــو إلاّ بائـــلٌ من مخافـةٍ وآخـــرُ منهـم ظلّ بالريـــقِ يَشـــرَقُ
وطارتْ قلـوبُ الناسِ شرقـاً ومغربـاً فما النـــاسُ إلا مُهجِـــسُ أو مُلقلِـــقُ [4]

وهو في هذه المقطعة لا يقصر الخوف من الحجّاج على نفسه وحدها، إنما يجعل الناس سواء في شدة الهلع من هذا الوالي المرعب، حتى ليبول بعضهم على نفسه، ويشرق بعضهم الآخر بريقه، وتتطاير القلوب منه في كل اتجاه، لا بل يدفعهم الهلع إلى الارتباك والهذيان.

أما في المقطعة الخامسة فنقف على حوار بينه وبين زوجه (النَّوار)، وقد أبدت له النصح بالابتعاد عن طريق الحجّاج وتجنُّب غضبه وبطشه، فهو يقول : (الطويل)

ألمْ تـرَ ما قالـتْ نَـوارُ ودونهـا من الهَـمِّ لي مُستَضمَـرُ أنا كاتِمُـهْ
تقـولُ وعيناهـا تفيضانِ : هل ترى مكانَـكَ ممَـن لا أراكَ تُخاصِمُـهْ؟
تنـحَّ عن الحجّـاجِ، إنّ زحامَـهُ شديـدٌ إذا أغضـى على مَن يُزاحِمُـهْ
ومَن يأمـنُ الحجّـاجَ، والجِـنُّ تتقي عقوبتَـه، إلا ضعيـفٌ عزائمُـهْ! [5]

وثمة مقطعة سادسة يُبدي فيها الشاعر خوفه، أو تشبّثه بمن يصفهم بـ "الأكرمين" لطرد المخاوف عن نفسه، وقد أظهر فيها تعطُّفاً واستكانة، من دون أن يُسمّي هؤلاء الذين لاذ بهم، فيقول مادحاً إيّاهم ودافعا التهم عن نفسه : (الكامل)

ولقـد أتيتُكـمُ لآمَـنَ فيكـمُ وأخـو المخـاوفِ عائـذٌ بالأكرمِ
وجميعُ أمّـةِ أحمـدٍ يرجونكمْ لدفاعِ ما رهِبـوا وفـكِّ المُقـرَمِ
ولقـد أتيتكـمُ بأعظـمِ منَّـةٍ ولزَمـتُ بابَكـمُ ولسـتُ بمجـرمِ [6]

ويعود الشاعر في المقطعة السابعة ليكشف عن شدّة هلعه من "وعيد ابن زياد"، قائلا : (الطويل)

وعيـدٌ أتانـي من زيادٍ فلـم أنَـمْ وسَيـلُ اللوى دوني وهَضبُ التهائـمِ
فبِـتُّ كأنـي مُشعِـرُ خيبريّـةً سـرَتْ في عظامي أو لُعابُ الأراقـمِ [7]

حتى ليبدو هلعه بالغاً أقصاه، فهو شبيه بالحمّى الشديدة (الخيبرية) أو بسمّ الأفاعي، ولاسيما إذ كان قد ابتعد كثيراً عن مدى سلطة الوالي (عبيد الله بن زياد).

أما القصائد، فتستوقفنا أولاها التي تبلغ (43) بيتا، والتي تشير مقدمتها إلى أن الشاعر "يمدح عبد الملك بن مروان، ثم يخاطب الحكم بن أيوب الثقفي الذي هدّده ونهاه عن الهجاء ويُظهر له طاعته"، فهو يقول في أبياتها الستة الأخيرة بشأن موقفه من ذلك التهديد المخيف : (البسيط)

كاد الفـــؤادُ تطيـــرُ الطائـــراتُ بـــه من المخافـــةِ، إذ قـــال ابـــنُ أيّـــوبِ

في الدارِ : إنك إنْ تُحدِثْ فقد وجبَتْ فيـــكَ العقوبـــةُ من قَطـــعٍ وتعذيـــبِ

في محبـــسٍ يتـــردّى فيـــه ذو رِيَـــبٍ يُخشى عليّ، شديدِ الهَولِ مرهوبِ

فقلـــتُ : هـــل ينفعنّي إنْ حضَرتُكـــمُ بطاعـــةٍ وفـــؤادٍ منـــكَ مرعـــــوبِ؟

ما تنـــهَ عنـــه فإني لســـتُ قارِبَـــهُ وما نَهـــى من حليـــمٍ مثلَ تجريـــبِ

وما يفوتُـــكَ شـــيءٌ أنـــتَ طالبُـــهُ وما منَعـــتَ فشيءٌ غيـــرُ مقـــروبِ! (8)

وتطالعنا مشاعر الخوف الشديد من الوالي (زياد بن أبيه) في بيتين من قصيدة ثُمانية الأبيات، بدأها بالتشبيب بـــ "بيضاء من أهل المدينة..."، قبل أن يقول في أمر خوفه مبدياً أمام المرأة شيئاً من اللامبالاة وعدم الاهتمام بوعيد الوالي، لأنه مؤمن أن الموت بالمرصاد له ولسواه من بني البشر : (الطويل)

وقامـــتْ تُخشّيني زيـــاداً وأجفلـــتْ حوالـــيَّ في بُـــردٍ رقيـــقٍ ومُجسَـــدِ

فقلـــتُ : ذريـنـــي من زيـــادٍ، فإننـــي أرى المـــوتَ وقّافاً على كلِّ مرصدِ

وقبل أن يُنهي هذه القصيدة القصيرة بالعودة إلى غرض التشبيب بهذه البيضاء المدينية (9).

كما أظهر مشاعر خوف مماثل من (الحجّاج) لدن ختامه إحدى مطوّلاته المهمة التي مدح بها الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك)، فهو بعد أن يعرض في الكثير من أبيات هذه القصيدة التي بلغ مجموع أبياتها (43) بيتاً مدائحه الموجهة إلى (الوليد)، قال في بيتيها الرابع والثلاثين والذي بعده : (الطويل)

وقد خِفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً ليَأخذنـــي، والمـــوتُ يُكـــرهُ زائـــرُهْ

لكان من الحجّـــاجِ أهـــونَ رَوعـــةً إذا هـــو أغضى، وهو سامٍ نواظِرُهْ...(10)

ثم قال في أبياتها الثلاثة الأخيرة معبّراً عن خشيته من غضبة الحجّاج الذي وصفه بـــ "المُخدِر" وهو الأسد الملازم لعرينه المتحفـّز للانقضاض على فريسته، مخاطباً الخليفة :

فلم أرَ شيئـــاً غيـــرَ إقبـــالِ ناقتـــي إليـــكَ، وأمري قد تعيَّـــتْ مصـــادرُهْ

وما خاف شيءٌ لم يَمُتْ من مخافةٍ كما قد أسَـرَّتْ في فؤادي ضمائرُهْ

أخاف من الحجّـاجِ سَـورةَ مُخـدِرٍ ضـواربُ بالأعناقِ منـهُ خـوادِرُهْ

ونراه يلجأ ــ ثانيةً ــ إلى عرض مخاوفه على الخليفة يزيد الثاني (يزيد بن عبد الملك بن مروان) خلل قصيدة مديح بلغت أبياتها (21) بيتاً، إذ يُمرِّر شكواه هذه المرة من بطش الوالي (زياد بن أبيه وغيره) في أبياتها (9ــ 15)، قائلا : (الطويل)

ولا جـارَ بعـد اللهِ خيـرٌ من الـذي وضعـتُ على أبوابِـه رَحـلَ خائـفِ

إلى خيـرِ جارٍ مُستَجـارٍ بحبلِـه وأوفـاهُ حبـلاً للطريـدِ المُشـارفِ

على هـوّةِ الموتِ التي إنْ تقاذفتْ بـه قذفتْـهُ في بعيـدِ التنائـفِ

فلا بـأسَ إني قـد أخـذتُ بعـروةٍ هي العُـروةُ الوثقى لخيـرِ الخلائـفِ

أتـى دون ما أخشى بكفـيَّ منهما حيـا الناسِ والأقـدارُ ذاتُ المتالـفِ

فطامـنَ نفسي بعدما نشـزتْ بـهِ ليُخـرجَ تَنـزاءُ القلـوبِ الرواجـفِ

و ردَّ الذي كادوا وما أزمعـوا لـه علـيَّ وما قـد نمَّقـوا في الصحائـفِ... (11)

ثم في بيتها التاسع عشر الذي يقول فيه :

هـُمُ منعـوني من زيـادٍ وغيـرِه بأيـدٍ طـوالٍ أمَّنـتْ كـلَّ خائـفِ

ونقف على قصيدة أخرى من (26) بيتاً، تشير مقدمتها إلى أنه "يمدح سعيد بن العاص بن أمية" بها، بيد أن الشاعر يعرض في أبياتها (19ــ22) شكواه من الممدوح نفسه ومن الوالي (زياد بن أبيه)، لأنهما استحلاّ دمه بسبب هجائه لـ "معاشر" هجته ولم يُسمِّها،إذ من الواضح هنا أنه نُهي عن الهجاء بأوامر عليا لم يُطق الانصياع لها، فيخاطب ممدوحه قائلا : (الوافر)

إليـكَ فرَرتُ منكَ ومن زيـادٍ ولم أحسِـبْ دمي لكـمُ حـلالا

ولكني هجـوتُ، وقـد هجتنـي معاشـرُ قد رضختُ لهم سِجـالا

فإنْ يكـنِ الهجاءُ أحـلَّ قتلـي، فقـد قُلنـا لشاعرِهِـم، وقـالا

وإنْ تـكُ في الهجاءِ تُريدُ قتلي فلـم تُـدركْ لمنتصـرٍ مقـالا... (12)

في حين نجده يخاطب ناقته في القصيدة الخامسة التي بلغت أبياتها (10) أبيات " لمّا هرب من زياد ونزل في بني سعد بن مالك بن مرثد بالحفاير ــ وهو ماء لبني قريط على يسار حاجّ الكوفة ــ وقد أبت تميم أن تُؤويه خوفاً من زياد..."وقد راح يمدح بني مرثد : (الطويل)

إلى الصِّيدِ من أبناءِ عمروِ بنِ مرثدٍ أُنيختْ لَبوني عند خيرِ المناهلِ
إليهمْ فأُمّيهمْ، فإني وجدتهمْ حِجازاً لمن يخشى اصطفاقَ الزلازلِ...

ويختم الفرزدق قصيدته هذه ببيتٍ يؤكد فيه اطمئنانه وأمنته بين هؤلاء القوم، فيقول :

بكمْ يُحسَمُ الداءُ العَياءُ ويُتَّقى بكم قادماً مخشيَّةَ الدَّرّ باهلِ (13)

أما القصيدة الأخيرة التي أبدى فيها الفرزدق شعوره المباشر بالخوف من وعيد الولاة له، والتي بلغ مجموع أبياتها (15) بيتاً، فجاءت شبيهة الألفاظ والمعاني إلى حدٍّ ما في بيتين من أبياتها بألفاظ المقطعة الخامسة آنفة الذكر، مع شيء من فخره بنفسه في خلالها، ومديح لـ "آل حرب" في ختامها، فهو يقول فيها مُبدياً خوفه من زياد : (الطويل)

أتاني وعيدٌ من زيادٍ، فلم أنَمْ وسَيلُ اللوى دوني وهَضبُ التهايمِ
فبِتُّ كأني مُشعِرُ خيبريّةً سرَتْ في عظامي أو دماءَ الأراقمِ
زيادَ بنَ حربٍ لو أظنُّكَ تاركي وذا الضغنِ قد خشّمتَه غيرَ ظالمِ...
رأيتُكَ مَن تغضبْ عليه من امرئٍ ولو كان ذا رهطٍ، يبِتْ غيرَ نائمِ...
فإلاّ تداركني من اللهِ نعمةً ومن آلِ حربٍ، ألقَ طيرَ الأشايمِ
فدعْني أكُنْ ما كنتُ حيّاً حمامةً من القاطناتِ البيتِ غيرِ الروائمِ
(14)

فما الذي تنفتح عليه أشعار الفرزدق المنتخَبة لأغراض هذا البحث؟

في نصوص هذا المبحث نجد الفرزدق منذ المقطعة الأولى التي أراد بها أن تبلغ مسامع والي البصرة (زياد بن أبيه) وقد توجَّه الشاعر نحو الكوفة، يفتح أبيات المقطعة على "شيء" من تحدّيه لذلك الوالي بأن يطلب مَن يُبلغ زياداً بأمر نجاحه في الهروب من بطشه وجبروته، ولجوئه إلى حاميه (سعيد) ذي المواصفات النبيلة، فهو "ذو مجدٍ وحسَبٍ تليد"، مغيِّباً عبر هذه العبارة مدلولاً يشير إلى هجاء زياد بكونه خلواً من المجد أو التاريخ ومن الحسَب القديم المشرِّفَين، لا بل بكونه ــ فوق هذا ــ قبيح الوجه غشوم على الضعفاء، فهو بلا ماضٍ يُعتدُّ به وبلا حاضر أخلاقي يُعتدُّ به أيضا، فهي مقطعة فخرٍ بالنفس أولاً لتمكّن الشاعر من الفرار من جلاّده، وهي مقطعة غيَّبت الهجاء أو ألمحت إليه في المستوى الدلالي الثاني، وهذه الدلالة نفسها يؤكدها الشاعر في المقطعة الثانية (ما كنتُ أحسبني جباناً...)، التي قالها في طريقه إلى الكوفة هارباً من الوالي نفسه، فهو يفتح بهذه

المقطعة مدلول الفخر بنفسه في مواجهة "الليث" الذي اعترض طريقه والذي أخذ يُشجِّع نفسه عازماً على مواجهته بشجاعة وقد "ضرب جروة نفسه" و"شدّ عليه إزاره" أو أمسك بمقبض سيفه وعدّل من قامته فعل الشجعان الصناديد، من دون أن ينسى توجيه هجائه إلى الوالي الشرّير بوصفه للّيث المعروف بشدة بطشه بأنه "أهون من زيادٍ جانبا..."، وهو هجاء مغيَّب كذلك للسلطة التي اعتمدت شخصاً كهذا والياً يتصرّف بأحوال الناس (الرعية) وشؤونهم.

أما في المقطعة الثالثة التي يخاطب في مستهلها الحبيبة البعيدة : (ألا طرقت ظمياء...)، فينفتح النصّ على مدلول يشير إلى أبشع هجاء وجهه الشاعر إلى هذا الوالي نفسه في شدّة بطشه وطغيانه على الرعية، من خلال ما أشار إليه الشاعر من موقفه الشخصي من مجرّد تذكّر ذلك الوالي في ختام المقطعة:

إذا ذكـــرتْ نفسي زيـــــاداً تكمَّشـــــتْ من الخوفِ أحشائي وشابَتْ مَفارقي

فالوالي ــ زياد بن أبيه ــ ليس إنساناً ولا يمتلك أية مواصفات إنسانية، بل هو وحش كاسر يخشاه الناس حتى إن كانوا بعيدين عن مدى سلطته، وفي "تكمُّش" الأحشاء البشرية من الخوف و"شيب المفارق" ما يؤكد هذه الخشية وهذا الفزع من وحشية والٍ مسؤول عن أرواح الناس وأموالهم وأمنهم وسلامتهم، مثلما يُفترض به أن يكون.

وبالانتقال إلى المقطعة الرابعة (إذا ما بدا الحجّاجُ...)، ينفتح النص أيضا على مدلول مغيَّب مماثل يشير إلى والٍ آخر لا يقل بطشاً عن صاحبه هو (الحجّاج بن يوسف الثقفي)، الذي شُهِر بتجبُّره وطغيانه، فهو ــ النص ــ يقدّم صورة أشبه ما تكون باللوحة "الكاريكاتورية" عن علاقة الناس بهذا الوالي، فهم متى ظهر أمامهم "أطرقوا وأسكتَ منهم كلَّ مَن كان ينطقُ"، وصاروا بين "بائلٍ من مخافةٍ / وآخر منهم ظلّ بالريق يشرَقُ"، وزاد ارتباكهم حتى ليروح كثيرون من بينهم يهذون "يُلقلقون" هذيان المجانين!.. وإنه لمدلول هجاء بالغ القسوة على الحجّاج لم يجرؤ على تقديمه شاعر من قبلُ، ولعل أحداً من الشعراء السابقين للفرزدق والتالين عليه ما استطاع أن يوجّه مثله وبمثل هذا الأسلوب الشديد السخرية، مع ما ينفتح عليه من هلع لا قرين له ولا نظير في تاريخ البشرية.

أما في المقطعة الخامسة ضمن هذا المبحث، فينفتح نص الفرزدق على "لعبة" ظريفة عندما يجعل من زوجه (نوار) لسان حاله في إبداء الخوف من الحجّاج، من خلال "تقويلها" تحذيراتٍ بالغة

الأهمية، منطلقةً من "همٍّ" طالما أضمره في نفسه وكتمه عليها، إذ تُبلغه و"عيناها تفيضان" أن يعي مكانه من خصمه وأن ينحّى عنه "لأن زحامَه شديدٌ إذا أغضى على مَن يُزاحِمُهُ"، ولأنه لا أحد "يأمن الحجّاجَ والجنُّ تتقي / عقوبته، إلا ضعيفٌ عزائمُهُ" (!!)، فهي ــ هو إنما يُحاول أن ينصح نفسه أو غيره من الناس بأن يتجنب غضب هذا الوالي الطاغية وشروره وبطشه التي يخشاها الجنّ قبل الإنس، وأن لا يُزاحمه أو يقف في طريقه لأنه أبشع من أن يسمح لأحد ــ كائناً من يكون ــ بمزاحمته، اللهمّ إلا أن يكون مجنوناً خائر القوى العقلية، وهو نصّ يشير إلى مدلول مغيّب لا علاقة له بالنصح والتحذير قدر انفتاحه على تأكيد حقيقة حال هذا الوالي الأكثر جنوناً من أي مجنون يُحاول مشاكسته أو معاداته، وهذا الموقف البالغ الرعب نفسه والبالغ الفضح لشراسة الولاة واستهتارهم بأرواح الناس، يفتحه أمامنا نص المقطعة السادسة الذي يُخبرنا الشاعر فيه أنه لاذ "بالأكرم" الذي لم يشأ أن يُسمّيه، وإنْ خاطبه بصيغة الجمع دلالة على مكانته المحترمة، ليأمن وهو "أخو مخاوف"، لا بل للدفاع عنه وعن "جميع أمّة أحمد" الذين يرجون من هذا الممدوح أن يدفع عنهم "ما رهبوا وفكّ المُقرم" المحبوس بغير جرم، في مواجهة متوعّده بل متوعّد الرعية بأكملها، فهو نص ــ صرخة بوجه الظلم والقسوة أكثر منه نصّاً للتعبير عن حالة "استنجاد" بقوى قويّة أمام قوى الظلم والاستبداد، ولاسيما أن في نص المقطعة السابعة (التالي) ما يؤكد حالة الهلع والرعب نفسها، إذ أخبرنا الشاعر فيه بأن وعيداً أتاه من الوالي السابق الذكر (زياد بن أبيه) فلم ينَمْ على الرغم من بُعد المسافة التي قطعها بعيداً عنه ودونه "سيل اللوى وهَضبُ التهائم"، إذ بات وكأنّ حمّى بالغة الشدّة "خيبريّة" أو لعاب الأفاعي بالغة السُّميّة سرت في عظامه، هذا لمجرّد سماعه بالوعيد فكيف به لو أنه وقع بالفعل فريسةً بين يدي هذا الوالي ــ الوحش المفترس؟!

هكذا قدّم لنا (الفرزدق) واقع حاله وحال الرعيّة في عصره عبر هذه المقطعات السبعة، وتحديداً عبر ما فتحته مداليلها المغيّبة من أبعاد القسوة والعنف والطغيان بأبشع صورها، وهي ما ستتضح مزيداً من الوضوح في القصائد السبعة التي توقفنا عليها ضمن هذا المبحث.

ففي القصيدة المطوّلة الأولى منها، وبينما قدّم الشاعر لممدوحه، رأس السلطة (عبد الملك بن مروان)، صورة جميلة عمّا أحدثه عاملُه على العراق من "انجازات" إدارية ــ عمرانية وأمنية ــ في مواجهة المخرّبين الخارجين على القانون والمفسدين على اختلاف هويّاتهم ومسمّياتهم، إلى حدّ قوله :

فأصبـــحَ اللهُ ولّى الأمـــرَ خيرَهُـــمُ بعد اختلافٍ وصدْعٍ غيرِ مشعوبِ

التفت في الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة ليرمي شباكه الأخرى ــ الحقيقية ــ ليجأر بالشكوى من مغبّة تهديد والي البصرة (الحكم بن أيوب الثقفي) الذي نهاه عن الهجاء ــ مثلما جاء في مقدّمة القصيدة ــ (!)، إذ كشف الفرزدق عن حاله في مواجهة تلك التهديد في سياق عملية المدح والإشادة التي نصّت عليها القصيدة في معظم أبياتها السابقة ظاهرا، فلقد :

كاد الفـــؤادُ تطيـــرُ الطائـــراتُ بـــه من المَخافـــة، إذ قـــال ابـــنُ أيّـــوبِ

فما الذي قاله الوالي للشاعر؟

لقد أبلغه بأنه إنْ "يُحدِثْ فقد وجبتْ / فيكَ العقوبةُ ومن قطعٍ وتعذيبِ"، وأين؟..

في محبَـسٍ يتـــردّى فيهِ ذو ريَـبٍ يُخشى عليَّ، شديدِ الهَولِ مرهوبِ

ولكن؛ ما الذي ينفتح عليه هذا النص بأبياته الثلاثة تحديدا، إذا ما وضعنا في الحسبان أن الأبيات الثلاثة التالية عليها لم تحمل غير جواب الشاعر على تهديد الوالي له؟

إنه ينفتح على حال بالغة الخوف والهلع إلى الحدّ الذي كاد فؤاده ــ هو الشاعر القريب من السلطة ــ تطير طائرات الرعب فيه لمجرّد سماعه بأمر "المحبس" المرعب المرهوب، فضلا على ما سبقته من إشارات الوالي إلى الـــ "قطع والتعذيب" (!)، وهي حال جرؤ الشاعر على إبلاغ حيثياتها إلى الخليفة وفي "عقر داره" مثلما يُقال، لا بقصد إطلاق شكواه الشخصية ــ على الأغلب ــ بل إيصال رسالة "مخفيّة" إلى رأس السلطة مما يحدث في دولته من جور وظلم وبطش بالرعية، وهي رسالة بالغة الوضوح تمكن الشاعر من تمريرها ونجح في ذلك.

وإذا تركنا جانباً القصيدة القصيرة الثمانيّة الأبيات التي أثبتنا بيتَي لا مبالاته منها في مواجهة تحذيرات الـــ (بيضاء من أهل المدينة...) من والي البصرة زياد بن أبيه، وانتقلنا إلى القصيدة المطوّلة الثانية (الرائيّة)، التي قالها مادحاً (الوليد بن عبد الملك)، لوقفنا على نصٍ بالغ الأهمية من حيث انفتاحُه ــ في مُجمله ــ على ما يمكن أن نسمّيه بـــ "عرض الحال" العامة بالغة السوء التي يعاني منها الرعية، وهذا ما سنبحثه عند دراسة القسم الثاني من المبحث الأول، ثم انفتاح النص نفسه تاليا على أحواله الشخصية ــ والرعيّة من خلاله ــ عبر شكوى الشاعر من حالة الخوف والهلع التي تنتابه وتنتابهم من بطش الوالي (الحجّاج) وجبروته وطغيانه، وهي حالة بلغت من الشدّة أنه صار لو يرى الموت مُقبلاً ليأخذه، على الرغم من كراهة الموت أصلا :

لكانَ من الحجّـــاجِ أهـــونَ روعةً إذا هو أغضى وهو ســـامٍ نواظِرُهْ

فهو يستعير من سلفه (النابغة الذبياني) صورة فزعِه وهلعه من النعمان بن المنذر، عندما أخبرنا بأنه يراه "كالليل الذي يُدركه وإنْ خالَ أنّ المنتأى عنه واسعُ"، ليُخبرنا شاعرنا بدوره أنه كأنما يرى الحجّاج ودونه مسافة شهر وليل عساكر ظلامه دائمة الإناخة عليه بكلكلها:

أدِبّ ودوني سيـــرُ شهـــــرٍ كأنني أراكَ، وليـــلٌ مُستحيـــــرٌ عساكـــرُهْ

قبل أن ينتهي إلى القول الصريح (الظاهر) :

أخافُ من الحجّاجِ سَـــورةَ مُخـدِرٍ ضواربُ بالأعناقِ منـــهُ خـــوادِرُهْ

الذي يشير إلى مدلول القسوة في البطش والظلم والقتل بلا رحمة التي يُمثلها هذا الوالي، الشبيه بالأسد المستتر بعرينه إذا ما ثار وغضب وراح يضرب أعناق الناس من دون أن يرفَّ له جفن أو تأخذه شفقة بهم.

ويفعل شاعرنا الفرزدق الشيء نفسه في القصيدة الرابعة من قصائد القسم الأول، إذ بينما تشير مقدمة القصيدة إلى أنه قالها مادحاً (يزيد بن عبد الملك)، واصفاً تفاصيل رحلته التي تجشّمها إليه، نجد نصّه سرعان ما ينفتح على دلالة مغيّبة ظاهرها تقديم واجب الطاعة والشكر إلى الخليفة الذي استجار الشاعر به لإنقاذه من واليه (زياد بن أبيه) وغيره، مثلما جاء في النص :

همُ منعوني من زيادٍ وغيـــرِهِ بأيـــدٍ طوالٍ أمَّنتْ كلَّ خائـــفِ

وباطنها الكشف عن شدّة بطش هذا الوالي وغيره من عمّال السلطة الذين ما انفكّوا يُرهبون الرعيّة ويُسيئون استعمال سلطاتهم تجاهها.

أما في القصيدة الخامسة التي قالها مادحاً في ظاهرها (سعيد بن العاص)، ينفتح النص على مدلول ظريف يشير إلى خوف الشاعر وهلعه من الممدوح نفسه ومن الوالي زياد معاً، لأنه بادلَ مَن هجَوهُ هجاءً "أحلَّ قتله..." مثلما أوضح في متن النص، مثلما يُشير إلى روح الصراحة البدوية الراسخة في أعماقه وإلى وثوقه من نجاحه في مراوغة هذا الممدوح، ولاسيما إذ رمى الكرة في ملعب زياد بقوله:

إليكَ فرَرتُ منـــكَ ومن زيـــادٍ ولم أحسِـــبْ دمي لكما حَـــلالا

حتى لنحسب أنه إذ قدّم حرف الجر (إلى) والضمير العائد إلى المخاطَب ــ الممدوح (الكاف) وأخَّر جملة (منكَ) التي سبقها بجملة (فرَرتُ)، إنما أراد أن "يُغيِّب" على نحوٍ ما شخص الممدوح المخيف

(سعيد) ويُرسّخ في مسمعه اسم المخيف الآخر (زياد)، على الرغم من إشارته في عجُز البيت إلى أنهما ــ كلاهما ــ أحلَّ سفك دمه، مُبدياً في الوقت نفسه شكوكه من أنهما في مستوى واحد من التهديد ومن ثَمّ من الإرعاب!

وبالانتقال إلى القصيدة القصيرة ــ السادسة ــ التي قالها يوم لجأ إلى (بني سعد بن مالك) هارباً من وعيد الوالي زياد، مادحاً إيّاهم لإيوائه بينهم وقد خاف قومه (بنو تميم) مغبّة إيوائه، نقف على نصٍّ انطوى على هجاءٍ مغيَّب للسلطة عبر مدح بني سعد هؤلاء، إذ يقول في ختام القصيدة :

وكانت يَــــداً منكمْ عمَمتـُـــمْ بفضلِها على كلِّ حـــــافٍ من معَـــدٍّ وناعـــلِ

بكم يُحسَـــمُ الـــداءُ العَيـــاءُ ويُتَّقـى بكم قادِمـــاً مخشيَّـــةَ الـــدارِ باهـــلِ

فهم ــ بنو سعد ــ عمّوا بأفضالهم جميع قبائل (معدّ)، وبهم وحدهم ــ مثلما يشير تقديمه لحرف الجر (الباء) والضمير المتصل العائد إلى الممدوحين في صدر البيت الثاني وعجُزه ــ تُحسَم أدواء الحاضر وما يمكن أن يحدث في قادم الأيام من جدبٍ يُخشى ألا تدرَّ النياق بسببه، وهذا الأسلوب المنفتح على مواربة مغيّبة طالما كان قد برع به الشاعر (الحُطيئة) من قبل، عبر إغاظة مَن يرغب في هجائهم بمدح خصومهم، فضلا على تأكيد الشاعر قوّة هذه القبيلة وشدّة بأسها في مواجهة السلطة وممثليها، وخير مثال على هذا قصيدته الشهيرة التي ادّعى (الزبرقان بن بدر) أنه هجاه فيها، بينما كانت القصيدة مخصصة أصلاً لمدح (آل لأي بن شمّاس) ولم يرد اسم الزبرقان فيها البتة بل أشار إليه غمزاً، ولاسيما أن شاعرنا (الفرزدق) عُرف بتقديمه الحطيئة وإعجابه به واعترافه له بالنبوغ[15].

أما النصّ الأخير في هذا القسم من بحثنا، المتمثل بالقصيدة القصيرة ــ السابعة ــ التي قالها الفرزدق بعد هروبه إثر وعيد زياد ولجوئه بين بني سعد، فقد ضمّنه الشاعر بيتين سبقت لنا الإشارة إليهما (مع بعض الاختلاف في عباراتهما)، هما قوله :

أتاني وعيـــدٌ مـــن زيـــادٍ فلـــم أنَـــمْ وسيلُ اللوى دوني وهَضبُ التهايمِ

فبِـــتُّ كأنـــّي مُشعِـــــرٌ خيبريّـــــــةً سرتْ في عظامي أو دمـــاءَ الأراقمِ

وعلى الرغم من أن الفرزدق في نصّه هذا قد انطلق من روح الفخر والاعتداد بنفسه، حاول أن يتملق الوالي بأبيات مديح ظاهر، ثم وصلها قبل ختامها ببيت مديح لـ (آل حرب) ليتداركوه ــ بعد الله تعالى ــ خشية هلاكه، ليختمها ببيت عبّر فيه عن مدى خوفه وهلعه من زياد، ففيه يقول :

فدعني أكُـــنْ ما كنـــتُ حيّـــاً حمامةً من القاطناتِ البيـــتِ غيـــرِ الروائمِ

ليكشف بهذا عن مدلول رجاء ناقضَ به ما بدأ نصّه بها من مداليل الفخر والاعتداد بنفسه، لا بل جعل نصَّه هذا ينفتح على مدلول مُغيَّب يشير إلى بلوغ قلقِه وهلعه من زياد مبلغاً كبيراً لم تتحمّله نفسُه، فهو يرجو ممن توعّده أن يتركه لشأنه على أن يعيش عيشة حمامةٍ وديعةٍ من حمام البيت الحرام الذي لا شأن لأحد به، فضلا على انفتاح النص بهذا على مدلول يشير إلى مدى قسوة الوالي وشدّة بطشه وبُعده عن أية قيم وأعراف إنسانية سليمة.

المبحث الثاني

الشكوى العامة نيابة عن الآخرين

في أربع مقطّعات (إحداهما مكررة) وتسع قصائد متفاوتة الأطوال بينها ثلاث قصائد من أطول المطوّلات في شعر الفرزدق أبياتها (99 ــ 113ــ 149) بيتاً، بمجموع بلغ (635) بيتاً، بدا شاعرنا لسان قومه وغيرهم من أبناء قبيلته أو الجياع التائهين في الفلوات، في التعبير عن الشكوى من جَور الولاة والعمّال "الرسميين" وظلمهم الصريح، ومن الفقر والجوع ومواسم المحل والقحط التي تُنيخ بكلكلها على الناس، وظهر حاميا ومدافعا عن أهله الأدنَين والأبعدين بهذا الشأن، تارة بالتوجّه إلى رأس السلطة الأموية مباشرة (هشام بن عبد الملك) أو (الوليد) أو أخويه (سليمان) أو (يزيد) أو إلى (عمر بن عبد العزيز)، وأخرى عبر مخاطبة الشاعر لــ (خالد بن عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبي العيص) أو (الحجّاج). وثمة في ديوان الشاعر مقطعة خامسة خماسية الأبيات تعرض لهذا المضمون كذلك ولكن من خلال هجاء الحجّاج، غير أننا استبعدناها من بحثنا هذا، لتنازع نسبتها بينه وبين (مالك بين الريب) وقرب أسلوبها من أشعار ابن الريب أكثر من جهة، ولاختلاف رواية أبياتها من جهة ثانية [16].

في المقطعة الأولى بهذا الشأن، يهجو الفرزدق (عمر بن هبيرة الفزاري) الوالي على العراق، عبر توجيه الخطاب إلى الخليفة (يزيد بن عبد الملك)، شاكياً من سوء تصرفات هذا الوالي ومن دناءة نفسه واستغلاله منصبه للإثراء هو وأهله على حساب الناس، فهو يقول فيها : (الوافر)

أميـــرَ المؤمنيـــــن وأنـــتَ والٍ شفيقٌ لستَ بالوالي الحريصِ

أأطعمتَ العراقَ ورافديه فزاريّاً أحذَّ يدِ القميصِ؟
ولم يكُ قبلها راعي مَخاضٍ ليأمنَه على وَرِكَيْ قميصِ!
تفيهق بالعراقِ أبو المثنى وعلّم قومَه أكلَ الخبيصِ
ستحملُه الدنيئةُ عن قليلٍ على سيساءَ ذُعلبةٍ قموصِ [17]

أما في المقطعة الثانية التي خاطب بها الشاعر (خالد بن عبد الملك بن خالد)، فقد شكا الشاعر باسم قومه ما يعانونه من "آفة المَحْل" التي نزلت بهم، إذ يقول في أبياتها الثلاثة : (الطويل)

شكوْنا إليكَ الجَهدَ في السنةِ التي أقامتْ على أموالنا آفةَ المحْلِ
ولم يبقَ من مالٍ يسومُ بأهلِه ولا مرتعٌ في حَزنِ أرضٍ ولا سهلِ
سواكَ، فأشْكِ القومَ ما قد أصابَهمْ على الجَهدِ والبلوى التي كنتَ قد تُبلي [18]

ويورد الديوان المقطعة آنفة الذكر بعد مقدمة تشير إلى أنه "يمدح الوليد بن عبد الملك"، مع اختلاف في رواية عدد من مفردات المقطعة، فهو يقول فيها : (الطويل)

شكَوْنا إليكَ الجَهدَ في السنةِ التي أقامتْ على أموالِنا آفةَ المحْلِ
ولم يبقَ من مالٍ يسومُ لأهلِه ولا مرتعٌ في حَزنِ أرضٍ ولا سَهْلِ
سواءَكَ، أشْكِي القومَ ما قد أصابهمْ على الجَهدِ والبلوى التي كنتَ قد تُبلي [19]

في حين نجده في المقطعة الثالثة يشكو من أحد عمّال (الحجّاج) المكلّفين بإدارة أحد مواضع الماء (السقايات)، فهو يقول : (الطويل)

لحا اللهُ ماءً حنبلٌ قيِّمٌ بها قفا ضَبّةٍ تحت الصفاةِ مَكونِ
إذا ما وردتَ الماءَ فادلِفْ لحنبلٍ بقعبٍ سويقٍ أو بقعبِ طحينِ
أويتُ لأبناءِ الطريقِ من امرئٍ شَروبِ الأداوي للرّكيِّ دَفونِ
ولو علِم الحجّاجُ علمَكَ لم تبِعْ يمينُكَ ماءً مُسلماً بثمينِ
لحاولتَ جدعاً أو لألفيتَ مُقعداً تزحّفَ تمشي مشيةَ ابنِ وضينِ [20]

وبالانتقال إلى القصائد، أمكننا أن نقف على قصيدة من (33) بيتا خصّ بالمدح فيها (هشام بن عبد الملك)، لكنه في الأبيات (16 ــ 20) ضمّنها شكوى عامة صريحة من ظروف الحياة الصعبة (اللزبات) التي يعيش الناس محنتها، وكذلك هروبه من (زياد بن أبيه)، فهو يقول فيها : (الطويل)

أقــول لأصحابـــــي وقـــد صدَقَتْهُـــــمُ من الأنفـُـسِ اللاتي جزِعـــنَ كَذوبُهـا
عسى بيـــدَيْ خيـرِ البريّـةِ تنجلـي من اللزَبـــاتِ الغُبْـرِ عنّـــا خطوبُهـــا
إذا ذ كُرِّتْ نفسي ابنَ مروانَ صاحبي ومروانَ، فاضتْ ماء عيني غُروبُهـا
همـــا منعانـــي، إذ فـــــررَتُ إليهمـــا كما منعـــتْ أروى الهضـابِ لُهوبُهـــا
فما رِمـــتُ حتى مات مَن كنـــتُ خائفـاً وطومِـــنَ من نفـسِ الفَـــروقِ وجيبُهـا [21]

أما في القصيدة الثانية ، فنرى الفرزدق يعرض بين (45) بيتاً في مدح (عمر بن عبد العزيز)، تسعة أبيات يُضمّنها شكوى عامة بلسان حال الناس، بعد ثلاثة أبيات في النسيب قدّم بها للقصيدة، فهو يعقبها مباشرة بالشكوى من ثلاثة أعوام من البلايا المهلكة أصابت قومه، قائلا : (البسيط)

وساقنـــا من قَســـا يُزجـــي ركائبَنـــا إليـــكَ مُنتجَـــــعُ الحاجـــاتِ والقـــدَرُ
وجائحـــاتٌ ثـــلاثٌ مـــا تركـــن لنـــا مـــالاً بـــه بعـدهـــنّ الغيـــثُ يُنتَظـرُ
ثنتـــانِ لم تتركـــا لحمـــاً، وحاطمـــةٌ بالعظمِ حمراءُ حتى اجتيحتِ الغُرَرُ
فقلتُ : كيف بأهلي حين عـضّ بهم عـــامٌ لـــه كلُّ مـــالٍ مُغنِـــقٍ جَـــزَرُ
عـــامٌ أتى قبلـــه عامـــانِ ما تركـــا مـــالاً ولا بـــلّ عـــوداً فيهمـــا مطـــرُ
تقـــولُ لمّـــا رأتنـــي، وهـــي طيِّبـــةٌ على الفـــراشِ ومنها الـــدلُّ والخفـــرُ
كأننـــي طالـــبٌ قومـــاً بجائحـــةٍ، كضربـــةِ الفتـــكِ لا تُبقي ولا تـــذَرُ :
أصدِرْ همومَـــكَ لا يَقتُلْـــكَ واردُهـــا، فكـــلُّ واردةٍ يومـــاً لهـــا صَـــدَرُ
لمّـــا تفـــرَّق بـــي همّـــي جمعـــتُ لـــه صريمـــةً لم يكـُنْ في عزمِها خـــوَرُ [22]

ويشير الشاعر في المطوّلة الثالثة ــ بما يُشبه السرد القصصي ــ إلى رحلة توجّه في خلالها إلى بلاد الشام، حيث مقر الخلافة، لعرض شكوى عياله من الفقر، قائلا : (الطويل)

كم مـــن مُنـــادٍ، والشريفـــان دونَـــه إلى الله تُشكـــى والوليـــدِ مفاقِـــرُهْ
يُنـــادي أميـــرَ المؤمنيـــنَ ودونَـــه مَـــلاً تتمطّـى بالمهـــاري ظهائـــرُهْ
بعيدُ نياطِ المـــاء، يستسلـــمُ القطـــا بـــه، وأدلاّءُ الفـــلاةِ حيائـــرُهْ
يَبيـــتُ يُرامي الذئـــبَ دون عيالِـــه ولو بات لم يشبعْ من العظم طائرُهْ [23]

ثم يروح يسرد تفاصيل ما واجهه في هذه الرحلة، إذ يلتفت ــ مباشرة ــ لينقل بصيغة الحوار ما دار بينه وبين جمعٍ ممن وصفهم بـ "الهُلاّك" الصعاليك الضالّي الطريق الجياع، مواصلا عَرض الحال المشكو منها في القصيدة :

رأوني، فنادَوني، أسوق مطيَّتي بأصواتِ هُلاّكٍ سِغابٍ حرائرُهْ

فقالوا : أغِثنا، إن بلغتَ، بدعوةٍ لنا عند خير الناسِ، إنّكَ زائرُهْ

فقلتُ لهم : إنْ يُبلِغِ اللهُ ناقتي وإيّايَ أُنبي بالذي أنا خابِرُهْ

بحيثُ رأيتُ الذئبَ كلَّ عشيَّةٍ يروحُ على مهزولِكمْ ويُباكرُهْ

ليجترَّ منكم إنْ رأى بارزاً له من الجيَفِ اللائي عليكم حظائرُهْ

لنقف ــ ومباشرة كذلك ــ على أسلوب التفاتٍ ثانٍ يبدو الشاعر الفرزدق فيه في مواجهة الخليفة (الوليد)، عارضا عليه عبر مرافعته الذكية أحوال الناس ومستنجدا به كي يُقدّم لهم يدَ العون، من دون أن ينسى تضمين أبيات قصيدته هذه غرض الفخر بقبيلته، الذي عُرف به وبه شُهِر :

أغِثْ مضراً، إنّ السنينَ تتابعتْ عليها بجَزٍّ يكسرُ العظمَ جازرُهْ

فكلُّ مَعَدٍّ ــ غيرَهم ــ حول ساعدٍ من الريفِ لم تُحظرْ عليهم قناطِرُهْ

وهُم حيثُ حلَّ الجوعُ بين تِهامةٍ وخيبرَ والوادي الذي الجوعُ حاضِرُهْ...

حتى يقول :

أغِثني بكُنهي في نِزارٍ ومُقبَلي فإنّي كريمُ المشرقَينِ وشاعرُهْ

وإنكَ راعي اللهِ في الأرضِ، تنتهي إليكَ نواصي كلِّ أمرٍ وآخِرُهْ...

ليروح يستكمل مرافعته بـ "دغدغة" مشاعر الخليفة واستدرار عطفه، عبر أبيات مديحٍ جاهزة، قبل أن يلتفت التفاتته الثالثة ــ الأخيرة ــ فيعرض على الخليفة شكواه الشخصية المباشرة من الحجّاج، واليه على العراق، التي سبق أن ذكرنا عدداً من أبياتها في القسم السابق من هذا البحث.

من هذا يتبيّن لنا أن هذه المطوّلة انطوت على شكوى ثلاثيّة الأبعاد: مما أصاب عياله من الفقر، ومما أصاب الآخرين من الناس من قحطٍ ومجاعة، ومما عانى منه الشاعرُ نفسه من خيفة غدر الحجّاج به وظلمه وجبروته.

أما في القصيدة المطوّلة الرابعة ــ وهي إحدى قصائده الأطول وأبياتها (99) بيتاً ــ التي قالها مادحاً (سليمان بن عبد الملك)، فقد مرَّر في أبياتها (19ــ 31) شكوى الناس من الظروف الصعبة، قائلا بالنيابة عنهم : (الكامل)

يا ابـــنَ الخلائـــفِ لم نجِـدْ أحـداً ... يبقـــى لحَـــــزَ نوائـــبِ الدهـــــرِ
إلا الرواســـــي، وهـــي كائنـــةٌ ... كالعِهـــنِ، وهي سريعـــةُ المَـــرِّ
فقـــد ابتُليـــتَ بمـــا زعمـــتَ لنـــا ... إنْ أنـــتَ كنـــتَ لنـــا على أمـــرِ
كم فيـــكَ إن ملكـــتْ يـــداكَ لنـــا، ... يومـــاً، نواصينَـــا مـــن النَّـــذرِ
مـــن حَـــجٍّ حافيـــةٍ وصائمـــةٍ ... سنتيـــنِ، أُمِّ أُفيـــرخٍ زعْـــرِ
لم يَبـــقَ منهـــمْ غيـــرُ ألسنـــةٍ ... وأُعَيظُـــمٍ وحواصـــلٍ حُمُـــرِ
ويُجمِّـــرون بغيـــرِ أغطيـــةٍ ... في البـــرّ مَن بعثوا وفي البحـرِ
ويُكلِّفـــون أباعِـــراً ذهبـــتْ ... جيَفـــاً بَليْـــنَ،تَقـــادُمَ العصـرِ
حتـــى غبطنـــا كـــلَّ مُحتمَـــلٍ ... يمشـــي بأعظـُمِـــهِ إلـــى القبـــرِ
وتمنَّـــتِ الأحيـــاءُ أنهُـــمُ ... تحـــت الترابِ وجـــيء بالحشْـــرِ
والراقصاتِ بكـــلّ مُبتَهَـــلٍ ... مـــن فـــجٍّ كـــلّ عمايـــقٍ غُبـــرِ
ما قلـــتُ إلا الحـــقَّ تعرفُـــهُ ... في القـــولِ مُرتَجَـــلاً وفي الشعـــرِ
ما أصبحتْ أرضُ العـــراقِ بها ... ورَقٌ لمُختبِـــطٍ ولا قِشـــرِ (24)

بينما مرَّرَ في الأبيات (70 ــ 79) منها بقية الشكوى ومطالب الناس من الخليفة، بالقول :

مـــات المَظالِـــمُ حين كنـــتَ لها ... حكَمـــاً، وجئـــتَ لنـــا على فَقـــرِ
منّـــا إليـــكَ كفقـــرِ مُحلِـــةٍ ... ترجـــو الربيـــعَ لـــرُزَّمٍ عشـــرِ
ذهَـــبَ الزمـــانُ بخيـــرِ والدِهـــا ... عنهـــا، ومـــا لبَنيـــهِ من دَثـــرِ
قد خنَّقـــتْ تسعيـــنَ أو كربَـــتْ ... تدنـــو لآخِـــرِ أرذلِ العُمُـــرِ
تُركـــتْ تُبكّـــي في منازلِهـــم ... ليســـتْ إلـــى ولـــدٍ ولا وفْـــرِ
بعث الإلـــهُ لها، وقـــد هلكـــتْ، ... نـــورَ البـــلادِ وماطـــرَ القَطْـــرِ
يرجـــون سَيبـــكَ أن يكـــونَ لهـــم ... كالنيـــلِ فاض على قُـــرى مِصـــرِ
فلئـــنْ نعشتَهُـــمُ لقـــد هلكـــوا ... واليُســـرُ يَفـــرُجُ لزبـــةَ العُســـرِ

ثم يقف بنا ديوان الفرزدق على قصيدة ثامنة من (38) بيتا، قالها في مدح (الحجّاج) من دون أن ينسى "تمرير" شكوى الناس من العمّال فاسدي الذمم، المرتشين حتى ليجعلون الحق باطلاً والباطلَ حقّا، فهو يقول في أبياتها (10ــ 13) : (الطويل)

وكنّا بأرضٍ يا ابنَ يوسفَ لم يكنْ يُبالي بها ما يرتشي كلُّ عاملِ
يرَون إذا الخصمانِ جاءا إليهمُ أحقَّهُما بالحقّ أهلُ الجعائلِ
وما تُبتغى الحاجاتُ عندَكَ بالرُّشى ولا تُقتضى إلا بما في الرسائلِ
رسائلِ ذي الأسماءِ مَنْ يدْعُهُ بها يجدْ خيرَ مسؤولٍ عطاءً لسائلِ...

(29)

لكنه لا ينسى عرض حاله الشخصية تجاه ما واجهه من تهديد ووعيد، فهو "يُقوّل" مَن لم يُسمِّ :

وقائلةٍ لي : ما فعلتَ إذ التقتْ وراءَكَ أبوابُ المنايا القواتلِ؟
فقلتُ لها : ما باحتيالٍ ولا يدٍ خرجتُ من الغُمّى، ولا بالجعائلِ
ولكنّ ربّي ربَّ يونسَ إذ دعا من الحوتِ في موجٍ من البحرِ سائلِ
دعا ربَّه، واللهُ أرحمُ مَنْ دعا، وأدناهُ من داعٍ دعا مُتضائلِ...

ويقف بنا ديوان الفرزدق أخيراً على إحدى مطوّلاته البالغة أبياتها (149) بيتا، وقد جعلها في مدح (سليمان بن عبد الملك)، وقد قتل القائد (قتيبة بن مسلم الباهلي)، وفخر الشاعر بقومه أيّما فخر وهجا قبائل قيس وجريراً، من دون أن يفوّت فرصة الشكوى من عتوّ الولاة وفسادهم، ولكن بصيغة مديح الخليفة لتخلّصه من هذا الوالي، في الأبيات (32ــ 36) في قوله : (الطويل)

عجبتُ إلى الجحّادِ أيَّ إمارةٍ أراد لأنْ يَزدادها، أو دراهمِ
وكان على ما بين عَمّانَ واقفاً إلى الصينِ، قد ألقَوا له بالخزائمِ
فلما عتا الجحّادُ حين طغى به غنىً قال : إني مُرتَقٍ بالسلالمِ
فكان كما قال ابنُ نوحٍ سأرتقي إلى جبَلٍ من خشيةِ الماءِ عاصمِ
رمى اللهُ في جثمانه مثل ما رمى عن القبلةِ البيضاءِ ذاتِ المحارمِ... (30)

تنفتح النصوص التي قدّمنا لأغراض هذا المبحث على مداليل مُغيّبة مرّرها الشاعر عبر مخاطبته لممدوحيه من رؤوس السلطة وعمّالهم، لم تُشرْ إلى شكاوى الرعيّة من الظروف الطبيعية القاسية (الجفاف والمحْل وسوء الأحوال الناجمة عنهما) حسب في جانب منها، أو من سوء استخدام

الولاة (العمّال) أنفسهم وموظفيهم حسب في الجانب الآخر منها، بل نحسب أنها تشير أساساً إلى جرأة الشاعر في عرض الحقائق من دون تردد أو خشية، على خلاف ما ظهر عليه من قلق وهلع ورعب في خلال عرضه لأحواله الشخصية، مما يشير إلى أن الفرزدق اختار أن يجعل من نفسه صوتاً "شعبيّاً" قويّاً في مواجهة الظلم والجور والفساد وما تخلل الحياة العامة من ظروف بالغة الصعوبة والقسوة، فضلا على ما أشّرناه من فخره بنفسه واعتداده بها وبقبيلته.

فهو في المقطعة الأولى يوجّه خطاباً قاسياً إلى رأس السلطة (يزيد بن عبد الملك) واصفاً إيّاه بالوالي الشفيق لكنْ الذي ليس بالحريص، وهي عبارة بالغة الجرأة تماما سرعان ما أردفها في البيت الثاني من المقطعة بعبارة تفسيريّة ذات مدلول مغيّب يحمل في طيّاته اتّهاما صارخاً بسوء تقدير الخليفة للأشخاص الذين يولّيهم مقاليد الأمور في ولايات الدولة، ولاسيما العراق، مثلما قال :

أأطعمتَ العراقَ ورافديهِ فزاريّاً أحذَّ يدِ القميصِ (!)

بينما يروح يخاطب الوالي (خالد بن عبد الملك بن خالد) في المقطعة الثانية بصيغة الأمر الصريح "أشكِ القومَ" بعد أن يعرض لأحوالهم المعيشية السيئة، وهو مدلول مغيّب آخر يشير إلى مقدار جرأته في الحق كذلك، وإن اختلفت رواية صدر البيت الثالث / الأخير واختلف تقديمها قبل ذلك في ديوان الشاعر، فجاء في تقديمها أنه "يمدح الوليد بن عبد الملك"، وجاء البيت على نحو :

سواءَكَ فاشكي القومَ ما قد أصابَهمْ...

بما يُعزز من مدلول الجرأة البالغة في الحق المغيّب في هذا البيت، إذ بقي فعل الأمر وإنْ على شيء من التغيير في صيغته واختلف المُخاطَب مكانةً وموقعا، فصار الخليفة بدلاً من مجرّد والٍ من الولاة.

في حين ينفتح نص المقطعة الأخير من مقطعات هذا المبحث على مدلول مغيّب يشير إلى سخرية الشاعر من الحجّاج لتوليته أمر سقاية الناس من أحد الآبار لـ (حنبل) السيئ السلوك والأخلاق، الذي يصرّ على فرض الرشا على طالب السقاية من الناس البسطاء، بما يُجرّدهم حتى من لقمة الخبز التي يعتاشون عليها :

إذا ما وردتَ الماءَ فادلفْ لحنبلٍ بقعبِ سويقٍ أو بقعبِ طحينِ (!)

والأنكى من هذا والأكثر إثارة للسخرية إن الفرزدق يقدّم مدلولاً مغيّباً آخر يشير إلى جهل الوالي (الحجّاج) بأفعال هذا الموظف القيّم على بئر الماء، وبفساد ذمّته المفضوح الذي يعرفه بسطاء الناس

ويُعانون منه، من دون أن ينال هذا الجزاء الذي يستحق. صحيح إن الشاعر بدا في بيت هذه المقطعة الأخير مداراة سخريته المغيّبة بجملة جزاء للشرط الذي أورده في البيت السابق : "ولو علِمَ الحجّاجُ..." تشير إلى مصير (حنبل) المُفترَض : "لحاولتَ جدعاً..."، إلا أنه أبقى على جملتيْ الشرط والجزاء مفتوحتَين على أمنية غير قابلة للتحقق بحرف الـ (لو) الدال على الامتناع للامتناع.

بالمقابل، وعند التوقف على المداليل المغيَّبة في النصوص المنتخَبة من قصائد هذا المبحث ومطوّلاته، سنجد أن أيّاً منها لم تتفتح إلا على صرخةٍ شاكيةٍ بصوتٍ بديل عن أصوات الرعيّة المكتومة في أوج عرض الشاعر لمدحيّاته على أولي الأمر من رؤوس السلطة.

ففي القصيدة الأولى، وبينما يبدأ الفرزدق قصيدته مادحا (بني مروان) في شخص هشام، يروح يعرض سوء ظروف الرعية المعيشية جرّاء ظروف الطبيعة القاسية، ولا ينسى أن يُمرِّر الشكوى الشخصية والعامّة من الشدائد (اللزبات الغُبر) ومنها الشدة التي تعرّض لها عبر وعيد الوالي زياد بن أبيه له وفراره من بطشه، فهي شدائد عامّة الأثر لا خاصّته، وهو ــ الشاعر ــ يُحاول "تغييب" حالته الخاصة في الحالة العامّة ما استطاع، فاتحاً نصَّه على شكاوى متداخلة من سوء سلوك السلطة وأعوانها (عمّالها) في آن.

ويقدّم الشاعر المداليل نفسها في المطوّلة الثانية التي يمدح بها الخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ ينفتح نصُّها على شكوى عامة أولى من ثلاث سنين مُجدبة أتت الثالثة منها حتى على المال العزيز :

وجائحـــاتٌ ثـــلاثٌ ما تركـــنَ لنـــا مـــالاً بـــه بعدهُـــنَّ الغيـــثُ يُنتَظـرُ

ثنتـــانِ لم تتركا لحمـــاً، وحاطِمـــةٌ بالعظمِ حمراءُ حتى اجتيحتِ الغُرَرُ

ثم سرعان ما ينفتح على فخر الشاعر بنفسه فخراً ظريفاً، إذ يشير مدلوله إلى قياديته للركب المتجه صوب مقرّ الخلافة (الشام) وإلى ثقته العالية جداً بشخص الخليفة ومدى استجابته لمضمون الشكوى التي بعثوا بها إليه، وكان الشاعر صوتهم في التعبير عنها.

أما في المطوّلة الثالثة التي مدح بها الوليد بن عبد الملك، فيفتح الشاعر نصَّه على مدلول قياديته وروح انتصاره للرعيّة وإصغائه لشكاواهم، التي غيّبها وراء عرض أحوال الناس البالغة السوء جرّاء الجدب الذي أصابهم :

رأوني فنـــادَوني، أســـوقُ مَطيَّتـــي بأصـــواتِ هُـــلاّكٍ سِغـــابٍ حرائرُهْ

فقالوا : أغِثنا، إنْ بلغـــتَ، بدعـــوةٍ لنا عنـــد خيـــر الناسِ، إنّـــكَ زائرُهْ

وهو دَور أدّاه ببراعة وبثقة عالية بنفسه أولاً عندما أجاب مكلّميه طالبي الغوث والمعونة بأنه سيفعل ما طلبوه منه، وقد (دغدغوا) منه مشاعره بقولهم : "إنكَ زائرُهْ" بما يقود إلى مدلول مُغيّب آخر يشير إلى قرب الشاعر من السلطة العليا شخصاً وصوتاً في آن، فضلا على المدلول المغيّب الرئيس الذي يشير إلى أنه ــ هو الشاعر ــ يملك من الشعور بالمسؤولية ما يفوق مقداره لدى رأس السلطة نفسه!

وبالانتقال إلى النص المطوّل الرابع الذي مدح به الفرزدق (سليمان بن عبد الملك)، نقف على مداليل مماثلة لما سبق، لا نجد بنا كثير حاجة إلى تبيانها، فهي تكاد تلوح ظاهرةً لا مغيَّبة تماماً بعد أن عرضنا مثيلاتها في النص السابق، بيد أن نص القصيدة الخامسة الذي خصّ الشاعر بالمدح (الوليد بن عبد الملك) في خلاله ، سيقف بنا على مدلول جديد ــ قديم فضلا على المداليل المشار إليها آنفا، نعني به مدلول سوء الإدارة وفساد السلطة وقد قدّمه الشاعر بصيغة مُغيَّبة وراء عرضٍ مطوّل لحاله وقد طرقته حبيبته (سلمى) في منامه، ثم لأبيات فخرٍ بنفسه وبقبيلته (دارم)، وأبيات وصفٍ لرحلته الشاقة إلى حيث مقرّ الخلافة، ثم أبيات شكوى عامة من سوء تصرفات الولاة الذين يكلفون الرعية ما لا تطيق، حتى أنهم ليأخذون الصدقات عن أموال تبددت بسبب القحط وأباعر صارت جيَفاً ولم يعد لها وجود، لا بل من ترك الجيش بدون الأعطيات التي يستحقها في المغازي.

والمدلول الذي نعنيه هنا يتمثل بما تضمنته رسالة الشاعر الملتوية إلى الخليفة بشأن عاملِه على العراق، هذا العامل الجشع المرابي الفاجر القاسي القلب الخالي من القيم الدينية والأعراف الاجتماعية، والذي لم يشأ الشاعر تسميته لتغييب مدلول ولاة آخرين كثيرين من أمثاله ــ ربّما ــ تعجّ بهم السلطة في ولاياتها المختلفة، لا في العراق وحده!

هي شكوى ــ إذاً ــ من أسلوب إدارة بالغ الفساد من شأنه أن يؤدي بالرعية إلى المهالك الدنيوية والأخرويّة، مادام يفرض عليهم أداء "واجباتهم" الماديّة التي فرضتها الشريعة بطرق لا شرعية مرفوضة تماماً، في المقدمة منها طريق الربا المحرَّم أصلا :

إذا سُقنـــا الفرائـــضَ لم يُرِدْهـــا وصـــدَّ عن الشويهـــةِ والبعيـــرِ

استجدّت في حياة الشاعر وأودت به إلى السجن. لذا وجدنا الضرورة تقتضي منا أن نتوقف على هذا النوع من الشكوى أولاً قبل التوقف على النوع الأخير من الشكوى، أي الشكوى من تلك القيود الحديد.

وفي هذا السياق تستوقفنا أولاً مقطعة من أربعة أبيات تقول مقدمتها أن الحسن البصري حضر جنازة (النوّار) امرأة الفرزدق، وأن البصريّ سأل الشاعر في أثنائها عمّا أعدَّ ليوم رحيله عن الدنيا، فأجابه : "شهادة أن لا إله إلا الله مذ ثمانون [كذا] سنة "، وأنشأ يقول : (الطويل)

لقد خاب من أولادِ دارمَ مَن مشى إلى النارِ مشدودَ الخِناقةِ أزرقا

إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ عنيفٌ وسَوّاقٌ يسوقُ الفرزدقا

أخافُ وراء القبرِ إنْ لم يُعافِني أشدَّ من القبرِ التهاباً وأضيقا

إذا شربوا فيها الصديدَ رأيتَهم يذوبون من حَرِّ الصديدِ تمزُّقا (31)

وتستوقفنا كذلك قصيدة من (26) بيتاً، تقول مقدمتها أن الفرزدق كان قد نذر أن يُقيّد نفسه وحلف أن لا يُطلق نفسه منه حتى يجمع القرآن، وأنه "بلغ نساء بني مجاشع فحش جرير بهن فأتين الفرزدق مقيّداً فقلن : قبّح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك فلُحيتَ شاعر قوم، فأحفظه ففضّ قيده فقال" : (الطويل)

ألا استهزأتْ مني هُنيدةُ أن رأتْ أسيراً يُداني خطوَه حلقُ الحجلِ

ولو علمتْ أنّ الوثاقَ أشدُّهُ إلى النارِ قالتْ لي مقالةَ ذي عقلِ

لَعَمري لئن قيّدتُ نفسي لطالما سعيتُ وأوضعتُ المطيّة للجهلِ

ثلاثين عاماً ما أرى من عَمايةٍ إذا برِقتْ إلا شَددتُ لها رحلي

أتتني أحاديثُ البُعيثِ ودونَه زرودٌ فشاماتُ الشقيقِ إلى الرملِ

فقلتُ : أظنَّ ابنُ الخبيثةِ أنني شُغِلتُ عن الرامي الكنانةَ بالنبْلِ

فإنْ يكُ قيدي كان نَذراً نذرتُه فما بيَ عن أحسابِ قوميَ من شُغلِ... (32)

ويعرض الشاعر في بقية قصيدته هذه لمواقفه الباعثة على الفخر، ولاسيما في أشعاره التي دافع فيها عن قومه وحرماته، والتي طالما جرت مجرى السمّ وكانت على خصومه " شرّاً من القتل"!

وانطلاقاً من قيده الأخلاقي المرتبط بوازعه الديني "أن يجمع القرآن" أو يحفظه، مثلما أخبرتنا مقدمة القصيدة، نحسب أن الضرورة تقودنا ــ بلا شك ــ إلى تبيّن ما يرتبط بهذا الوازع في أشعار

الفرزدق، لما سيكون له من شأن في تقريب ملامح صورته الأخرى التي طالما غابت عن مؤرخي سيرته ــ أو غيّبها المؤرخون عامدين ــ لأسباب يمكن تبيّنها في اللاحق من صفحات هذا البحث.

عليه؛ سنتوقف على قصيدة ثانية من (21) بيتاً، مدح بها (هشام بن عبد الملك) مدّعياً جواره لجدّه (مروان بن الحكم)، عندما طرده زياد بن أبيه واضطر إلى التوجّه نحو المدينة وقت أن كان مروانُ والياً عليها، مثلما تخبرنا مقدمة القصيدة، التي تهمّنا منها أبياته المعبّرة عن "قيـــد" الإيمان، فهو يقول في أبياتها (9ــ 11) : (الطويل)

وأيَّ مُجيـــرٍ بعـد مـــروانَ أبتغي ... لنفسيَ أو حبـــلٍ له حيـــن أجرَما

ولم تـــرَ حبلاً مثل حبلِ أخذتـــُهُ ... كمـــروانَ أنجى للمُنادي وأعصَما

ولا جـــارَ إلا اللهُ إذ حـــال دونهُ ... كمروانَ أوفـــى للجـــوارِ وأكرما... (33)

وهي ــ نعني عبارة "ولا جار إلا الله..." ــ ترددت كثيراً في أشعار الفرزدق.

ومن أطرف ما يمكن أن نتوقف عليه من أشعار الفرزدق بهذا الشأن وأظرفه معا، قصيدته البالغة (34) بيتا التي يهجو فيها (إبليس)، إذ يكشف فيها عن مدى إيمانه وتقواه بعد أن أطاع الشيطان طوال "سبعين عاماً" مثلما يعترف في هذه القصيدة. إنه يقول في أبياتها الأوَل : (الطويل)

ألـــم تـــرَنـــي عاهـــدتُ ربّـــي، وإننـــي ... لَبيـــنَ رِتـــاجٍ قائـــمٍ ومَقـــامِ

على قسَـــمٍ لا أشتُـــمُ الدهـــرَ مُسلمـــاً ... ولا خارجـــاً مـــن فـــيَّ ســـوءُ كـــلامِ

ألـــم تـــرَني والشعـــرُ أصبـــحَ بيننـــا ... دُروعٌ مـــن الإســـلامِ ذاتُ حُـــوامِ

بهنّ شفى الرحمنُ صدري، وقد جلا ... عشـــا بَصَـــري منهـــنّ ضوءُ ظـــلامِ

فأصبحـــتُ أسعى فـــي فَكـــاكِ قـــلادةٍ ... رهينـــةِ أوزارٍ عَلـــيَّ عِظـــامِ...(34)

وفيها يقول كذلك :

أطعتُـــكَ يـــا إبليـــسُ سبعيـــنَ حِجَّـــةً ... فلمّـــا انتهـــى شيبـــي وتـــمَّ تمامـــي

فـــررْتُ إلى ربّـــي، وأيقنـــتُ أننـــي ... مُـــلاقٍ لأيّـــامِ المَنـــونِ حِمامـــي

ولمّـــا دنـــا رأسُ التـــي كنـــتُ خائفـــاً ... وكنـــتُ أرى فيهـــا لقـــاءَ لِـــزامِ

حلفـــتُ علـــى نفســـي لأجتهِدَنَّهـــا ... علـــى حالِهـــا من صحّـــةٍ وسَقـــامِ...

حتى نجده يقول :

وما أنـــتَ يا إبليسُ بالمـــرءِ أبتغي ... رضـــاهُ، ولا يَقتـــادُنـــي بزمـــامِ

سأجزيكَ من سَوءاتِ ما كنتَ سُقتني إليـــــه جروحـــــاً فيـــــكَ ذاتَ كـــــلامِ...

ولا يفوتنا أن نشير إلى حرص الفرزدق في الكثير من نصوص أشعاره على تأكيد إيمانه الصادق بالله تعالى، وبالمبادئ والقيم السامية التي حملها رسول الله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه) إلى البشرية كافة، فضلا على تمسكه بهذه المبادئ والقيم، ولاسيما إذ يُظهر في نصوصه مدى قربه منها وحفظه لنصوصٍ من كتاب الله العزيز (القرآن الكريم)، ومما نحسب أن قارئ ديوانه سيقف على عدد آخر منها في تضاعيف نصوصه الكثيرة التي من شأنها أن تنفي عنه "تهمة" الفجور وضعف ورعه وخوفه من الخالق عزّ وجلّ.

فما الذي تنفتح عليه نصوص هذا المبحث من أشعار شاعرنا الفرزدق؟

لقد قدّم لنا الشاعر في نصّ مقطعته الوحيدة المنتخبة لأغراض هذا المبحث مدلولاً إيمانيّاً ظاهراً غايةً في الوضوح، وأبدى خوفاً لا مواربة فيه من العواقب الوخيمة التي تنتظر البشر في يوم يُعرضون على الله، لكنه قدّم مدلولاً مغيّباً أشار فيه إلى خشيته من تلك العاقبة ــ شأن أي إنسانٍ مؤمن ــ في قوله :

أخـــافُ وراءَ القبـــرِ، إنْ لـــمْ يُعافِني، أشـــدَّ مـــن القبـــرِ التهابـــاً وأضيقـــا

لأن رحمة الله تعالى وعفوَه الكريم تبقى أملاً أو حبلاً ينتظر الإنسان من الخالق أن يمدَّه إليه للنجاة من نار الآخرة وجحيمها،وفي إجابته على سؤال (الحسن البصري) ما يؤكد هذا كله.

أما في نصوص قصائده المنتخَبَة، فيمكننا القول أن نصّ القصيدة الأولى ينفتح على ثلاثة مداليل رئيسة ظاهرة، أوّلها لجوء الشاعر إلى كتاب الله خشيةً من عقابه الأخروي، وثانيها سعيه إلى تجنّب المزيد من "غوايات" الدنيا وقد سعى "ثلاثين عاماً" في طرُقها ومجاهلها، بينما يشير المدلول الثالث إلى حرصه على قومه والدفاع عنهم بوجه مُستهدفيهم بالأذى، عدواناً ماديّاً مباشراً أو هجاءً ونيلاً من أعراضهم، وهي مداليل تغيِّب مدلولاً شاملاً لهذه الثلاثة المداليل، يشير إلى فهمه الدقيق السليم لمبادئ الإسلام وما جاء في أحاديث رسوله الأمين، من وجوب دفاع المسلم عن أرضه وعِرضه وماله، وهو فهم يصبّ في صالحه لا في العكس منه.

في حين ينفتح نصّ القصيدة الثانية على مدلول إيماني آخر غيّبه الشاعر تحت مداليل المدح الظاهرة، بإشارته إلى أنه :

ولا جـــارَ إلا اللهُ، إذ حـــالَ دونه، كمروانَ أوفى للجـــوارِ وأكرَمـــا

إذ لو لم يكن شاعرنا على درجةٍ عالية من الإيمان لاستمرّ يُشيد بجواره مروان بن الحكم ــ جدّ الخليفة الممدوح هشام ــ ولاسيما في موقف "الالتجاء" ذاك إلى رأس السلطة بعد أن توعَّده عاملها زياد بن أبيه وفرّ من البصرة إلى المدينة المنوَّرة، ولكنه آثرَ أن يؤكد جواره مع الخالق أوّلا في مدلول لا يشير فيه إلى انتباهة ذكية منه بهذا الشأن حسب، بل يشير أصلا إلى تذكير رأس السلطة بقدرة الله تعالى وسلطته الأعظم، وهذا ما فعله في مواقف مماثلة عدّة.

ويقف بنا نص القصيدة الثالثة بمدلوليها الرئيسين الظاهرَين : عهد الشاعر الذي قطعه على نفسه أمام الله عند بيته الحرام، بأن يترك هجاء أي مسلم وقد صار الشعر عنده اعوجاجاً في روحه المؤمنة، وتوجيه هجائه إلى (إبليس) الذي أطاعه ــ هو الفرزدق ــ سبعين عاماً، ولكنه رغب في الفرار إلى خالقه العظيم في أخريات أعوامه، نقول يقف بنا هذا النص على مدلول اعتذار الشاعر عمّا اجترحه في سابق عمره من المعاصي وإعلان توبته ولجوئه إلى سبيل الإيمان القويم، وهذا ــ مثلما سبق وأشرنا ــ مما لم يجرؤ غيره من الشعراء الذين عاصروه أو جاءوا بعده على الإتيان بمثله في نصوصهم الشعرية، فهو خير تعبير عن الجرأة في الحق (الديني) بعد الذي عرضناه من مواقفه الجريئة الصريحة أو المغيّبة، ولاسيما في نصوص المبحث الثاني المنتَخَبة دفاعا عن حقوق الرعيّة (المدنيّة) المُضيَّعة.

المبحث الرابع

الشكوى من قيود (كبول) السجن

في هذا المبحث الأخير، استوقفتنا ثلاث مقطعات وست قصائد متفاوتة الأطوال بلغ مجموع أبياتها (211) بيتا، والمقطعات مجموع أبياتها ستة أبيات فقط، كل منها من بيتين فقط، يقول في المقطعة الأولى من داخل سجنه : (الطويل)

أبلِـــغْ أميـــرَ المؤمنيـــنَ رسالـــةً ... فعجِّـــلْ، هداكَ اللهُ، نزعَـــكَ خالـــدا

بنى بيعـــةً فيهـــا الصليبُ لأمِّـــهِ ... وهدَّم من بُغضِ الصلاةِ المساجدا (35)

وهي لا تتضمن شكوى من قيوده (كبوله) وأحواله في داخل السجن، بل شكوى من نوع آخر من نوع التحريض على الوالي الذي أمر بسجنه، بعد أن هاجمه هاجياً إيّاه "لمّا حفر النهر الذي سمّاه المبارك" في البصرة [36].

في حين نقرأ له في المقطعة الثانية شكواه من القيود في سجنه، عندما حبسه (مالك بن المنذر بن الجارود) وأخرجه (النضر بن عمرو المقري وحبس مالكا)، فهو يقول فيها : (الطويل)

ألا طالما رسَّفتُ في قيدِ مالكٍ فأصبح في رجليهِ قيدي مُحوَّلا

وأطلقني النضرُ بنُ عمْروٍ وربما بكفَّيهِ قد فكَّ الأسيرَ المُكبَّلا [37]

أما في المقطعة الثالثة المتعلقة بشكوى الفرزدق من القيود والسجن، فنقرأ له قوله في بيتيها : (الطويل)

إذا الأُسدُ ماستْ في الحديدِ وسوَّمتْ تميمُ، وجاءتْ بالبحورِ الخضارمِ

فما الناسُ في حَيَّيهما غيرُ حشوةٍ إذا سكنَ الأصواتُ غيرَ الغماغمِ [38]

في حين نقرأ في القصيدة الأولى من قصائد الشاعر بهذا الشأن، التي تبلغ أبياتها (21) بيتا، والتي قالها وهو محبوس "يمدح خالد بن عبد الله القسري" قوله فيها : (الطويل)

وإنّي لأرجو خالداً أن يَفكّني ويُطلقَ عنّي مُثقلاتِ الحدائدِ... [39]

وقوله :

ألا تذكرون الرحْمَ أو تُقرِضونني لكمْ خُلُقاً من واسعِ الحلمِ ماجدِ

فإنْ يكُ قيدي ردَّ همّي فربّما تَرامى به رامي الهمومِ الأباعدِ...

ثم قوله :

فهل لابنِ عبد الله في شاكرٍ لكم لمعروفِ أنْ أطلقتمُ القيدَ حامدِ

وما من بلاءٍ غيرَ كلِّ عشيّةٍ وكلِّ غداةٍ زائراً غيرَ عائدِ

يقولُ ليَ الحدّادُ : هل أنتَ قائمٌ؟ وهل أنا إلا مثلُ آخَرَ قاعدِ

كأني حروريٌّ له فوق كعبِهِ ثلاثونَ قيداً من قروصٍ مُلاكِدِ

وإمّا بِدَينٍ ظاهرٍ فوق ساقِهِ فقد علموا أنْ ليس دَيني بناقدِ

وراوٍ عليَّ الشعرَ ما أنا قلتُه كمعترضٍ للرمحِ دون الطرائدِ!

في حين تستوقفنا قصيدته البالغة (54) بيتا التي يمدح بها (هشام بن عبد الملك)، ويندّد فيها بتهديدات الوالي (خالد القسري) وحبسه له، إذ نقرأ في بيتيها (36ـ37) قوله فيها : (الطويل)

فـإن أكُ محبوسـاً بغيـــرِ جريـرةٍ فقـــد أخـــذوني آمنـــاً غيـــرَ خائـفِ
وما سجنونـــي غيـــرَ أنّي ابـنُ غالـبٍ وأنّـي مـن الأثرَيـنَ غيـرِ الزعانـفِ... (40)

ثم قوله في ختامها :

ولـــو كنـتُ أخشى خالـداً أن يَروعَني لطِـرتُ بـــواف ريشُـــهُ غيـــرَ جـادفِ
كما طِـــرتُ من مِصـــرَيْ زيـاد، وإنّـه لتَصـــرِفُ لـــي أنيابُـــهُ بالمتالـــفِ
وما كنتُ أخشى أن أُرى في مُخيَّسٍ قصيرَ الخطى أمشي كمشيِ الرواسِـــفِ
أبيتُ تطـــوفُ الـــزُّطُّ حولي بجُلجُـلٍ عَلـــيَّ رقيـــبٌ منهـمُ كالمُحالـــفِ!

أما القصيدة الثالثة في هذا الغرض، فتعنينا منها أبيات عدّة متفرقة من مجموع أبياتها البالغ (31) بيتا، وفيها يخاطب (مالك بن المنذر بن الجارود) مادحاً وراجيا : (الكامل)

إنّـــي بذمّـــةِ مالـــكٍ وبمنـــذرٍ بـــألاكَ مُحتـــرسٌ لكـــلِّ مَحـــولِ
وإذا حُمِلـتُ إلى الصـــلاةِ كأننـي عِـــبءٌ يَميـــلُ بعدلِـــهِ المعـــدولِ
يمشي الرجالُ بـــه على أيديهِـــمُ للهِ درُّ مُقيـــــدٍ محمـــــولِ
إن القِرى سُجِنـــتْ معي نيرانُـــهُ عـــن كل نـــازلِ جنبـــةٍ ودخيـــلِ
قد كنـتُ أطعمهُـــنَّ كلَّ سمينـــةٍ للطارقيـــن بأســـرعِ التعجيـــلِ... (41)

وفيها يقول أيضا بعد أن راح يفخر بنفسه وكرمه :

يا مالِ هل لكَ في أسيرٍ قد أتـــتْ تسعـــونَ فوق يدَيـهِ غيـــرَ قليـلِ
فتَجُـــزَّ ناصيتي وتُفـــرجَ كُربتـي عنّـي، وتُطلِـــقَ لي يـداكَ كبولي
يا مالِ هل أنا مُهلكي ما لم أقُـلْ وليَعرفـــنَّ من القصائـــدِ قيلـــي...

أما القصيدة الرابعة التي وجهها الشاعر الفرزدق إلى (مالك بن المنذر) أيضا، والبالغ مجموع أبياتها (37) بيتا، فيعنينا منها عدد من أبياتها المتفرقة المتضمنة شكوى الشاعر من السجن وقيوده الحديد فيه، فهو يقول : (الطويل)

ألـم ترَني ناديـتُ بالصـوتِ مالكـاً ليسمـــعَ لمّـــا غـــصَّ بالريقـــةِ الفـمُ
ستعلـــمُ أنّ الكاذبيـــنَ إذا افتـــرَوا علـــيّ، إذا كـــرَّ الحديـــثُ المُرجَّـــمُ

به عدداً من التهم بالفسق والفجور وعدم الخشية من الخالق ومراعاة حقوق الدين ومبادئه وقيمه، فضلا على انتمائه إلى "الحزب" الأموي وقصره بقية أشعاره على كيل المديح إلى رؤوس دولتهم، التي تناقلها عنهم مَن درس هذا الشاعر أو توقف على حياته وشعره في العصور الأدبية التالية، حتى الآن.

ولنا أن نقول ــ من بعدُ ــ أيضا : إن ما أظهرته معاينتنا للمداليل المغيَّبة التي انفتحت أمامنا في النصوص المنتخَبة من أشعار هذا الشاعر، أثبتت خطل ما سجّله علماء الأدب ومؤرّخوه المتقدمون وما تناقله عنهم المتأخرون، بشأن مواقفه الحقيقية، السياسية والاجتماعية والحياتية بعامة بإزاء السلطة الأموية، رؤوسها وولاتها وعُمّالها، وبإزاء هموم قومه الأدنَين ورعيا الدولة الأموية، إذ على العكس مما شُهِر به الفرزدق، تبيّن لنا أنه كان صوت قومه والرعية في مختلف أرجاء الدولة، وكان ضمير المظلومين جميعا، سواء من خلال ما تعرّض له من ظلم وأصابه شخصياً من ضروب الحيف، أم من خلال تحمّله أعباء نقل الشكاوى "الشعبية" واتّصافه بروح قياديّة قلّ نظيرها في مجايليه من الشعراء المحسوبين على السلطة تحديدا، إلى أولئك الحكّام الذين وثق من مكانته الشخصية بينهم، فضلاً على تحلّيه بروح الإنسان المؤمن بقيم الدين الحنيف ومبادئه السامية وتمسُّكه بها وبما نصّ عليه كتاب الله العزيز، القرآن الكريم.

لذا يمكننا القول، مكرّرين ما سبق أن قلناه في أبحاث ودراسات سابقة : إنّ في إعادة بحث الكثير من الجوانب الحياتية والأدبية ودراسة نصوص أصحابها أو عبر دراسة نصوص أصحابها أصلا، وعلى وفق المناهج النقدية الحديثة، فرصاً بالغة الأهمية لإعادة ــ بالمقابل ــ لوجهات النظر القديمة والآراء التي تمخّضت عنها، التي اعتمدها الكثيرون من الدارسين وعدّوها من "المسلَّمات" التي لا تحتمل النقض، وفي هذه الفرص المستجدّة ما يُضيء المزيد وما يكشف عن التبايُنات التي حفل بها تاريخ أدبنا العربي بالذات، لأسباب وعوامل زمنية ومكانية وسياسية وبيئية حتى، لا يتوجّب أن تظل حاكمةً فيما نتلقى ونتبنّى من الأحكام النقدية على هذا الشاعر أو هذا الكاتب أو ذاك.

الهوامـش :

(1) ديوان الفرزدق، مج1/ 146.

(2) نفسه، مج1/ 257.

(3) نفسه، مج2/40.

(4) نفسه، مج2/ 53.

(5) نفسه، مج2/ 204.

(6) نفسه، مج2/ 266.

(7) نفسه، مج2/ ص. ن.

(8) نفسه، مج1/ 26.

(9) نفسه، مج1/ 153.

(10)نفسه، مج1/ 251.

(11)نفسه، مج2/ 17.

(12)نفسه، مج2/ 70.

(13)نفسه، مج2/ 96.

(14)نفسه، مج2/ 215.

(15)ديوان الحطيئة، 117. ويُنظر : 14 وما بعدها مع هوامشهما.

(16)ديوان الفرزدق، مج1/ 160. وينظر : الشعر والشعراء، 208. وأيضا : أشعار اللصوص وأخبارهم، مج1/ 302.

(17)ديوان الفرزدق، مج1/ 389.

(18)نفسه، مج2/ 84.

(19)نفسه، مج2/ 126.

(20)نفسه، مج2/ 343.

(21)نفسه، مج1/ 61.

(22)نفسه، مج1/ 182 وما بعدها.

(23)نفسه، مج1/ 248 وما بعدها.

(24)نفسه، مج1/ 262 وما بعدها.

(25)نفسه، مج1/ 266 وما بعدها.

(26)نفسه، مج1/ 285 وما بعدها.

(27)نفسه، مج2/ 26 وما بعدها.

(28)نفسه، مج2/ 71 وما بعدها.

(29)نفسه، مج2/ 137 وما بعدها.

(30)نفسه، مج2/ 309 وما بعدها.

(31)نفسه، مج2/ 39.

(32)نفسه، مج2/ 152.

(33)نفسه، مج2/ 188.

(34)نفسه، مج2/ 212.

(35)نفسه، مج1/ 160.

(36)تنظر المقطعة : نفسه، مج2/ 59.

(37)نفسه، مج2/ 151.

(38)نفسه، مج2/ 277.

(39)نفسه، مج1/ 132 وما بعدها.

(40)نفسه، مج2/ 10 وما بعدها.

(41)نفسه، مج2/ 121 وما بعدها.

(42)نفسه، مج2/ 248 وما بعدها.

(43)نفسه، مج2/ 257 وما بعدها.

(44)نفسه، مج2/ 285 وما بعدها.

(45)تنظر دراستنا : الإبداع والإتباع في أشعار فُتّاك العصر الأموي، 45 ــ 55.

المصـــــادر :

- الإبداع والإتباع في أشعار فتّاك العصر الأموي، د. عبد المطلب محمود، دراسة، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2003.
- أشعار اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملّوحي، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ط2، مج1، 1993.
- ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت (186ــ 246هـ)، دراسة وتبويب : د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط3، 2003.
- ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، مج1 ومج2، تقديم : كرم البستاني، ط1، 1386 هـ ــ 1966م.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (ت 276هـ)، حققه وضبط نصّه ووضع حواشيه : د. مفيد قميحة و أ. محمد أمين الضنّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط1، 1421هـ ــ 2000م.